

دلائل الإعجاز

وأما زُهدهم في الذَّحْوِ واحتقارهم له وإصغارهم أمرَهُ وتهاؤُنهم به فصنعهم في ذلك أشنعُ من صنيعهم في الذي تقدّم وأشبهُ بأن يكونَ صِدًّا عن كتابِ □□ وعن معرفةِ معانيه ذاك لأزَّهَمَ لا يجدونَ بُدًّا من أنْ يَعْتَرِفُوا بالحاجةِ إليه فيه إذ كان قد عُلِمَ أنَّ الألفاظَ مغلقةٌ على معانيها حتَّى يكونَ الإِعرابُ هو الذي يفتحها وأنَّ الأغراضَ كامنةً فيها حتى يكونَ هو المستخرجُ لها وأنه المعيارُ الذي لا يُتَّبَعُ نَقْصانُ كلامٍ ورُجحانهُ حتى يُعرضَ عليه . والمقياسُ الذي لا يُعرفُ صحيحٌ من سقيمٍ حتَّى يُرجَعَ إليه . ولا يُنكِرُ ذلك إلا مَنْ نَكَرَ حِسَّه وإلا مَنْ غالطَ في الحقائقِ نَفْسَهُ وإِذا كان الأمرُ كذلكَ فليتَ شعري ما عذرُ مَنْ تهاونَ به وزهدَ فيه ولم يرَ أنْ يستسقيهُ من مَصَّبه ويأخذهُ من معدنه ورضيَ لنفسه بالنِّقصِ والكمالِ لها مُعرضٌ وآثر الغَبينةَ وهو يجدُ إلى الرَّبِّ سبيلاً .

فإِنْ قالوا : إنَّنا لم نأبَ صِحَّةَ هذا العِلْمِ ولم ننكِرْ مكانَ الحاجةِ إليه في معرفةِ كتابِ □□ تعالى وإنَّما أنكرنا أشياءَ كَثُرَتْ موه بها وفُضِّلَ قولُ تكلِّفِ موهها ومسائلَ عَويصةً تجشَّمَتْمُ الفكرَ فيها . ثم لم تَحصلوا على شيءٍ أكثرَ من أنْ تُغَرِّبُوا على السَّامعينَ وتُعَايوا بها الحاضرينَ قيلَ لهم : خَبِّرُونَا عَمَّا زعمتم أنَّهُ فضولُ قولٍ وعويصُ لا يعودُ بطائلٍ ما هو فإنْ بدأوا فذكروا مسائلَ التَّصريفِ التي يصعُبُها الذَّحْوِيُّونَ للرياضةِ ولضربِ مَنْ تَمَكَّنَ المقاييسِ في النفوسِ كقولهم : كيف تَبني من كذا وكقولهم : ما وَزنُ كذا وتَتَبَّعْهُمْ في ذلك الألفاظَ الوحشِيَّةَ كقولهم : ما وَزنُ عِرْوَيْتِ وما وَزنُ أَرْوَنانِ وكقولهم في بابِ